

كتب الطب

مصدر للتاريخ الدولي

عبد الهادي التازي

وأنا أحرر موسوعتي حول التاريخ الدبلوماسي للمغرب لفت نظري تنوع مصادر ذلك التاريخ التي كانت تشدني إليها لدرجة أنها كادت تلهيني عن مواصلة ما كنت بصدده !

لقد كان بعضها يُكون بحثا مستقلا على حدة، ومن هنا تجمعت لدي عدة فصول عن تلك المصادر أعترم إن ثنى الله لي الوساد أن أقدمها على شكل أحاديث ومقالات.

ونحن نعلم أن المهندس عندما ينتهي إلى وضع تصميم لبيت أو عمارة، يترك وراء ذلك التصميم كومة من الأوراق التي بيضاها قبل أن يصل إلى ذلك التصميم، وقد كان حالي أنا على ذلك النهج، فقد توفرت لدي عدة ملاحق وعدت في عضون الكتاب بنشرها.

لقد كان من تلك المصادر :

كتب النوازل والفتاوي التي كشفت لنا عن كثير من الأخطاء التي كنا نسير على ترديدها تقليداً لبعض المعلومات التي روتها بعض مصادر تاريخ المغرب. وأكتفي بالإشارة إلى الأسباب التي جعلت الملك محمد الثالث يرفع حصاره عن الإسبان في مليلية، والتي وردت ضمن فتوى عدد من العلماء : الحافظ العراقي والشيخ التاودي ابن سودة والشيخ بناني⁽¹⁾.

كما وجدنا من تلك المصادر كتب الفهارس التي وقفنا فيها على نصوص بعض الاتفاقيات التي غابت عن أعين الذين كانوا يهتمون بالعلاقات الدولية بين الإسلام والمسيحية في الغرب الإسلامي.

ووجدنا من تلك المصادر الحوالات الحبسية أو حجج الوقف كما يسمونها، وكان بعضها يتوفر على تقايد ذات طابع دولي، وخاصة في علاقاتنا مع عالم المشرق، وهي المعلومات التي أكدتها الوثائق التي عثرنا عليها في حضرموت.

كما وجدنا في تلك المصادر بعض المنقوشات على الألواح أو الجبس أو على القطع النحاسية على نحو ما وقفنا عليه مما يتصل بالأمير أبي مالك الذي اتخذ من (رندة) عاصمة له، على عهد والده السلطان أبي الحسن من بني مرين.

هذا إلى المسكوكات التي تعتبر الركيزة الأساس لحضور الدولة، أيّ دولة على مر العصور. وقد وجدنا من تلك المصادر مذكرات السفراء، مغاربة وأجانب، ومذكرات الأسرى كذلك أجانب ومغاربة ممن كانوا يتحدثون حديث شاهدي عيان.

ووجدنا من تلك المصادر سِيرَ بعض الذين كانوا يتطارحون على الأجنبي مستعنيين به لكي ينالوا غرضا من أغراض الدنيا ومن أجل فترة من فترات الحكم! وقد كانت هذه الظاهرة المحزنة - مع الأسف - تبرز بين الفينة والأخرى في التاريخ الدولي للمغرب، وكانت تساعد خصوم بلادنا على التدخل في شؤون المغرب الذي كان في بعض الأحيان يتجزأ إلى سبعة مغارب، يربط كل مغرب منها علاقات مع الخارج.

ووجدنا من تلك المصادر القطع الشعرية - ويا ما أكثرها ! - مما اعتبر مصدرا حيا للأحداث كما كان يراها الشعراء في عين المكان، على نحو ما يقوم به الصحفيون اليوم، وأضرب مثلا بما قيل عن دور المغرب في كسر شوكة البرتغال في الخليج والشرق الأقصى !

وقد كان من المصادر ذلك العدد العديد من الأمثال الشعبية المغربية التي تدل على أن المغاربة كانوا يعيشون فعلا الأحداث الدولية في أوروبا وفي بقية أقطار المعمور. وقد قرأنا عن استنجد الملك محمد الرابع بالولايات المتحدة لتعينه على دول أوروبا. وما قيل عن ذلك من أمثال مغربية. سوف لا أسترسل في رصد كل تلك المصادر التي تؤكد - إن كنا في حاجة إلى التأكيد - بأن بلادنا كانت دائما حاضرة على الصعيد الدولي، وهي الحقيقة التي نتحدث عنها الأرشيفات الأوروبية والآسيوية والأفريقية والأمريكية كذلك.

وسأقصر حديثي الموجز هنا على إثارة الانتباه إلى الكتب المتعلقة بالطب والصيدلة من التي قد تغيب عن ذاكرة بعضنا، والتي وجدنا فيها هي الأخرى بعض المحطات التي لا بد أن تستوقفنا ونحن نعالج التاريخ الدولي لبلادنا، سيما

وأن هذا التاريخ ظل مهملاً من لدن كبار مؤرخينا من أمثال ابن خلدون الذي تجاهل ذكر بعض الأحداث التي كان يعيشها وهو في بلاط بني مرين.

لقد كان من الممتع بالنسبة للذين يهتمون بتاريخ العلاقات التي تربط المغرب بغيره، في الأمس البعيد والقريب، أن يسمعوا عن السفارات المتبادلة بين الملوك، ونحن نعلم أن المحاملات الدبلوماسية تقتضي في كثير من الأحيان أن تتبادل الأطراف المعنية بعض الهدايا التي تخلد تلك الزيارات أو تهدف إلى إظهار المكانة التي وصلتها جهة من الجهات.

ومن هنا وقفنا في المصادر الطبية على أخبار السفارة البيزنطية التي وردت على الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 331 هـ/948 م من القيصر قسطنطين السابع ملك القسطنطينية ومعها طائفة من الهدايا النفيسة.

لقد استقبلت هذه السفارة من قبل عبد الرحمن الناصر بمحضر جمع من عيون العلماء والأدباء من أمثال أبي علي القالي وافد العراق.

وكما قرأنا في كتاب «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة (ت 668) عند ترجمة ابن جليجل⁽²⁾... فقد كان في هذه الهدايا المقدمة من سفراء بيزنطة نسخة من مخطوطة ديوسقوريدس (Dioscorides) الذي كان مكتوباً باللغة اليونانية.

وكانت هذه الهدية مدعاة لاستقدام الخليفة الناصر لترجمان يحسن تلك اللغة للمساعدة على تعريب الكتاب وجعله في المتناول.

وجواباً على السفارة البيزنطية بعث الخليفة الناصر بوفادة إلى قسطنطين.. وأكبر الظن على أن الهدف من هذه السفارة كان توطيد الصداقة القديمة التي كانت بين القسطنطينية وبين قرطبة على عهد عبد الرحمن الأوسط منذ

عام 840-225 عندما وردت بعثة من الامبراطور ثيوفيلوس (Theophilus) على الخليفة في أعقاب سقوط عمورية التي كانت موضوع قصيدة أبي تمام المشهور في مدح المعتصم بالله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب !
تلك البعثة التي أجاب عنها عبد الرحمن بإرسال سفيره المعروف يحيى الغزال⁽³⁾.

أريد القول : بأن الحديث عن كتاب ديوسقوريدس يقترب بالحديث عن التاريخ الدولي لبلاد المغرب على ما رأينا...

ولقد كان من المهم بالنسبة إلي أن أعرف أن (أرگان) من المواد التي كانت تُصدّر من المغرب إلى المشرق على نحو ما عرفناه عن تصدير اللّبدة المغربية وتفوقها على لبود خراسان في أواخر القرن الثاني الهجري أي منذ العهد الإدريسي⁽⁴⁾.

لقد استفدنا من النقل الفريد الذي أورده ابن البيطار في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» أنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري - على الأقل - كانت (أرگان) تجلب إلى المشرق، يعني في الفترة التي عاشها المغرب متأرجحاً بين الحكم الأموي بالأندلس وبين الحكم الفاطمي بتونس.

وهكذا قرأنا في (الجامع) أن الطبيب المصري الشهير أبا الحسن علياً ابن رضوان الذي توفي سنة 453-1061 والذي خصص له ابن أبي أصيبعة ترجمة حافلة من عشر صفحات، والذي كان مصدراً من المصادر المعتمدة عند ابن

والمهم في نص ابن البيطار أن ابن رضوان يخبرنا في هذه الفقرة بأن هذا الثمر يجلب من شجر كبير بالمغرب الأقصى. يضيف ابن رضوان إلى هذه المعلومة أن شجر أرگان له فوائد الطبية التي يعدها واحدة واحدة.

وأن الذين يعتزون بالثروة الوطنية للمغرب ليقدرن هذه المعلومات التي قدمها لنا ابن البيطار نقلا عن ابن رضوان الذي ضاع نصه الأصلي حول هذه الشجرة التي تعتبر حتى اليوم وبالرغم من ظهور كل المعلومات التي تصنف أسماء النبات شرقا وغربا، أقول تعتبر خصوصية من الخصوصيات المغربية.

ومعنى هذا أنه كان هناك جسر ظل قائما بين المغرب والمشرق وعلى نحو هذا وجدنا عشرات الأمثلة من الفقرات التي لم يشعر فيها ابن البيطار بأنه كان يقدم لنا لقطات هامة عن مدى صلة جهة بأخرى وكان يقدم لنا صورة عن مدى التعامل بين الأمم وخاصة على صعيد التجارة الطبية التي كان لها طابع كُوسْمُوبُولِيَت.

ويبقى علينا بعد هذا التقديم لما ورد في كتاب «الجامع» لابن البيطار أن ننبه لتقصير وقع في الترجمة الفرنسية، التي قام بها مشكورا الدكتور لوسيان لوكليير قبل أكثر من قرن⁽⁵⁾، لقد علمنا أن ابن رضوان تحدث بالحرف عن «جلب» أرگان من المغرب الأقصى بالتحديد لكن لوكليير تجاهل عند الترجمة كلمة (جلب) واكتفى بالقول بأن الشجر من المغرب الأقصى (Du Maghreb Extrême). مع أن هناك جالبا ومجلوبا منه. وهناك أطراف كانت تتناقش هذا «الجلب» وهو ما يعني (الاتصالات والعلاقات بين المغرب والمشرق حول هذه المادة).

ولم تكن مادة (أرگان) وحدها التي كانت تصدر من المغرب، فقد تحدث ابن البيطار عن النبات الذي يحمل اسم (عافر قرحا le pykéthré) الذي

يذكر ابن البيطار أنه دواء معروف عند الجميع وهو المسمى بالبربرية تاغندست ولا يعرف العاقر قرحا بغير بلاد المغرب خاصة، قال : ومنه يحمل إلى سائر البلاد، وأن الناس يعرفون (تاغندست) في دمشق بعود القرح المغربي⁽⁶⁾ ومعنى هذا أيضا أن هذه المادة كانت تُصدّر من المغرب.

وأذكر إلى جانب (أرگان) و(عاقر قرحا) مادة (الزنجبيل)، وهو مما كان ينبت في بلاد المغرب أيضا على نحو ما ينبت في أرض عمان، ونعلم أنه يؤكل رطبا ويستعمل يابسا وأنه يشرب قبل الطعام، والمهم عندي في الموضوع أن كتب الطب والصيدلة، وأقصد دائما «الجامع» لابن البيطار الذي يقول : إنه يجلب في أواني خاصة إلى إيطاليا⁽⁷⁾.

وفي مقابل المواد التي كانت تُصدّر من المغرب، نجد أن بلادنا كانت تسعى إلى البحث عما تحتاج إليه من جهات أخرى، حيث نقف على أنواع من الأفاويه والأعشاب التي تأتينا من أقاصي البلاد، من بلاد الترك والفرس ومن آسيا : الهند والصين.

وهكذا فإن المغاربة يعرفون إلى اليوم استعمال الحشرة التي تحمل اسم «ذبابة الهند»⁽⁸⁾ Les cantharides، ويدل اسمها كما نرى على أنها تأتينا من القارة الهندية. وكذا استعمال المغاربة لحب الهيل الذي يحمل في المغرب اسم قاقلة الذي يأخذ اسمه من الميناء الذي يقع في الملاوي والذي تشحن منه هذه المادة إلى بلاد المغرب. ونحن نحرف اسمه إلى قاع قلة (بإضافة العين) !

وكذا استعمال دار الصيني الذي يشبه القرفة ويأتينا - كما يدل على ذلك اسمه - من بلاد الصين، وقد شاهدت منه في أسواق بيكين أكواماً معروضة للبيع.

وعلى نحو ما نقوله في بخور (الجاوي) الذي يأتينا من جاوه في أندونيسيا، نقوله كذلك في بخور العود القماري نسبة إلى مدينة قمار الهندية.

وقد تحدث الطبيب عبد القادر بن شقرون، طبيب السلطان مولاي اسماعيل، في أرجوزته الطبية عن بعض الثياب التي ترد علينا من بلاد الروم ذاكرا بالذات مدينة روان (Rouen) الفرنسية، مفضلا لتلك الثياب على ما يأتينا من أسبوط ومنفلوط. ولا يخفى علينا صلة الثياب بالمادة الطبية والحالة الصحية للبدن⁽⁹⁾.

ويعرف المغاربة ثياب (الملف) التي ترد من المدينة الإيطالية (أمالفى)، كما يعرفون خيوط الصقلي الواردة من صقلية. ويستعملون كذلك القهوة الواردة علينا من ميناء مخا ببلاد اليمن المحرقة عند الفرنسيين إلى مكا Moka.

وجود تلك المواد المغربية في بلاد غير بلادنا ووجود المواد المشرقية ببلادنا يعني وجود قوم مفاوضين حول تصدير أو إيراد تلك المادة أو هذه، ويعني بالواضح وجود صلات تربط المغرب بباقي الأمم.

وإن حديث المصادر التاريخية عن وجود طائفة من المغاربة في الهند وفي الصين مثلا، ووجود مقابر ومشاهد لبعض الأعلام المغربية في الشرق الأقصى ثم وجود مشاهد لبعض الأعلام المشرقية في بلادنا، كل ذلك مما يبرر الحديث عن التأليف الطبية مصدرا من مصادر التاريخ الدولي للمغرب.

وقد قرأنا في تاريخ الموحدين عن وجود طائفة من الأطباء اللامعين يصحبون الركب الخلافي، ولاشك أن هذا الحضور لم يكن للفسحة والنزهة، ولكن لأداء المهمة التي تنتظر الطبيب عند الطوارئ! وهكذا فقد كان الأطباء

مصحوبين بتشكيلة من الأدوية بل وبعدد من الأدوات الجراحية لجبر الكسور ورتق الخروق واستخراج السهام من المقاتل : الرأس والقلب والرئة.

ومن هنا رأينا إن مخطوطة أبي القاسم الزهراوي (Abulcasis) (التصريف لمن عجز عن التأليف) تتضمن رسوما لعدد من الأدوات المستعملة لهذه الغايات.

ومن المهم أن أقول هنا إن بعض المصادر الأوروبية وخاصة منها البرتغالية تذكر أن الأطباء المغاربة كانوا يقومون أيضا بعلاج خصومهم في المعسكر الآخر. وهذه لقطة جميلة أخرى في العلاقات الدولية للمغرب أثناء الحروب.

وعندما نتتبع تطور العلاقات بين دول البحر المتوسط على الخصوص فإننا سنقف على عدد من الاتفاقيات الاقتصادية التي لا تخلو من النص على بعض المواد الطبية والصيدلية بما فيها الأعشاب والمعادن والحيوان كذلك.

وهكذا وجدنا اسم الصمغ العربي (la gomme arabique) والنطرون (Borax) والميعة (Sturax) والكافور (Camphre) والعنبر (La Dnum) والصبر (Aloes) والتخت (Tartre) والزعفران (Safran) والشبث (Aneth) والكمون (Cumin)، والزعتر (Thym)، (الشاي) (Le Thé).

وكان من أغرب ما نصت عليه الاتفاقيات أيضا وخاصة منها الاتفاقيات المبرمة بين المغرب وبعض الدول الأوروبية : انجلترا مثلا، نصت على تصدير ما يسمى بالعلق الطبي (Sangsus) الذي كانت تستعمله وما تزال المستشفيات الأوروبية في عمليات الفصد لتنشيط الدورة الدموية، الأمر الذي يدل أيضا على ما نقوله من أن المصادر الطبية تعتبر مصدرا من مصادر التاريخ الدولي للمغرب⁽¹⁰⁾.

وفي حديث الأوروبيين في بحوثهم الطبية داخل قارتهم لم يفتهم أن يتحدثوا عما كان يمكن أن يصل إليه الطب من تطور لو أن علاقات المغرب بأروبا كانت على درجة أكثر تفهما لما كانت عليه على عهد السلطان مولاي اسماعيل مثلاً.

وقد قرأنا بحثاً حول هذا الموضوع للجنرال بيير لوفيفر والجنرال إدريس عرشان في المجلة الفرنسية لابريس ميديكال La presse Médicale في عدد 14 يناير 1984 بمناسبة الحديث عن فشل خطبة الأميرة الفرنسية «كونتي»⁽¹¹⁾.

وفي كثير من التقارير الدبلوماسية التي كان يحررها الدبلوماسيون الأجانب ممن كانوا يقومون في نفس الوقت بدور الأطباء في القصور الملكية كنا نلمس بعض الحقائق عن العلاقات التي تربط المغرب بغيره من الأمم من خلال تلك المذكرات.

ونذكر من بين هؤلاء الطبيب الدبلوماسي الإنجليزي ويليام لامبرير (W. Lemprière) الذي قدم لنا معلومات جد هامة عن النشاط السياسي للعاهل المغربي الملك سيدي محمد بن عبد الله، وذلك عندما كان يقوم بعلاج بعض حريم القصر الملكي. حيث كان له حديث عن الأميرة الضاوية الكورسيكية الأصل التي يحتفظ لها المتحف الوطني في مدريد بلوحة فنية رائعة.

وما قلناه عن هذه المذكرات من الوافد الإنجليزي نقوله عن سكرتير السفير الإسباني جورج خوان (Jorge Juan) سفير الملك كارلوس الثالث الذي سجل حديثاً مهماً عن الحالة الصحية في بلادنا وعن الإمكانيات الطبية التي كانت في المتناول. إن الأمثلة كثيرة وخاصة في العهد الأخير لما قبل نصب الحماية حيث نجد أن للأطباء الأجانب دوراً ملحوظاً في التاريخ الدولي للمغرب.

وسأكتفي بالقول إنه عندما تتم فهرسة كتب الطب فهرسة مفصلة - على الأقل - على نحو ما فعله الدكتور لوكير، عندئذ سنقف على جانب مهم من تاريخنا الدولي والوطني كذلك.

أمامنا عدد من كتب التراث الطبي مخطوطة ومطبوعة، ومع الأسف الشديد تنقصها الفهارس العلمية المفصلة التي تختصر طريقنا للمعرفة من تلك الكتب كتاب «التيسير» الذي نشرته أكاديمية المملكة المغربية ونشرته كذلك المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وأعتقد أنه عندما تتم تلك الفهرسة فإنه سيسهل علينا أن نعرف المزيد عن علاقتنا بالأمم الأخرى مما يتصل بتبادل الخبرات وتبادل المواد الصيدلانية من غير اعتبار للفروق الموجودة بين بني البشر.

الهوامش

- (1) «النوازل الصغرى» للمهدي الوزاني، ج 1، ص 411، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1412-1992، «الاستقصا» للناصرى، ج 8، ص 40، طبع دار الكتاب - الدار البيضاء، 1956.
- (2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» دار الثقافة، بيروت (لبنان)، الطبعة الرابعة، 1408-1987، ج 3، ص 75.
- (3) فازيليف : «العرب والروم»، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي - بروكسيل، ص 163-164. عبد الهادي التازي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 4، ص 308، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع فضالة - المحمدية.
- (4) ذكر عند كلامه حول تحف الصين أن الجاحظ في كتابه «التبصر بالتجارة»، قال : إن خير اللبود الصينية ثم المغربية الحمراء - ثمار القلوب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - مطبعة المعارف، مصر 1985.
- 5) Notices et extraits des manuscrits de la bibliothèque nationale et autres bibliothèques, Paris, Imprimerie Nationale 1883, T. 26, p. 246.
- (6) «الجامع» لابن البيطار، ج 3، (طبع 1291-1875 - محمد العربي الخطابي : «تنقيح الجامع»، بيروت، 1990، ص 237.
- (7) «الجامع»، ج 2، ص 167.
- (8) يبدو أن ذبابة الهند لها صلة بالذرائح التي وردت في كتابة «الجامع» الذي يقول فيه : إن منه ما يسمى بالبربرية أزغلال الذي ينفع إذا جعل في مرقة اللحم، ج 2، ص 124.
- (9) «الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية»، تحقيق وتعليق، د. بدر التازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1404-1984، 164-165.
- (10) د. عبد الهادي التازي، «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 2، ص 19، مطابع فضالة، المحمدية، رقم الإيداع القانوني : 1986/25. الزعفران والذهب النباتي (مجلة الخطوط الملكية المغربية، دجنبر 1994).
- 11) Pierre Lefebvre et Moulay Idriss Archane : «Une idylle manquée à la cour du roi soleil». «Ses conséquences du regard de la médecine du XVI^e siècle», la presse médicale 14 janvier 1984.

